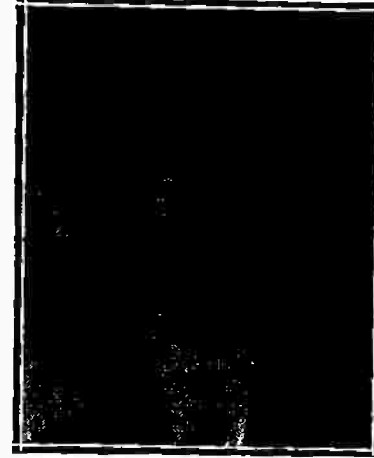


تبصرة وذكرى

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

ليس خيراً في الاحتفال

بذكرى هجرة الرسول من
الاجتهاد في إحياء سنته
صلوات الله عليه عن
طريق التنبه إلى بعض
الآخطار التي تخف بها في
هذا العصر الذي تكالبت
فيه عليها الميول والشهوات
ومختلف النزعات الناجمة
في الغرب، والتي توشك إن



لم يجتهد أولو الرأي والدين في صدّها وإيقافها عن حدها أن
تطمس من نور سنة صاحب الهجرة صلى الله عليه وسلم ونور
كتاب الله نفسه، فتعمى قلوب بعد إبصار، وتنشأ ناشئة المسلمين
في دياجي الشك بعد أن كان يرجى أن تنشا في نور اليقين
وأخطر تلك النزعات الناجمة والشهوات الهاجمة نزعة التشكيك
في أحكام الدين من ناحية، وشهوة تأويلها إلى ما يتفق وما
يسمونه روح العصر، أو بالأحرى رأى الغرب وحكمه من ناحية
أخرى. وأصحاب هذه النزعة حين يذكرون روح العصر أو
يدعون إلى اتباع الغرب إنما يريدون تقمص روح الغرب واتباع
خطواته في الاجتماعيات، أي في الميدان الذي ما نزل الدين
إلا لتنظيمه، وما جاء الرسول إلا لتقويم الحياة فيه. والغرب
كما نبهنا في مثل هذا المقام من قبل لم يصب سنن الله إلا في عالم
المادة أما في عالم الروح والاجتماع فالغرب لم يصب سنة ولا حكماً،
بل هو في حيرة من أمره: يضطرب بالنظم المتناقضة، ويعج
بالآراء والنظريات، ويميد بالآهواء والشهوات، حتى أصبحت
عوامل القوة والأمن التي أصلها من ناحية علومه الطبيعية، هي
بذاتها عوامل الخطر والخوف فيه؛ وأصبح من مدنيته هذه
المادية المسرفة المغرورة كالساكن على حرف بركان

لكن الذين يدعون إلى الغرب فتنتهم قوته المادية، وجهلوا
ضعفه الاجتماعي، فظنوا أن القوة في ناحية معناها القوة في كل
ناحية، وأنه لما كان على حق في طبيعياته، فهو على حق في اجتماعياته؛
فسييل النهوض والقوة في زعمهم هو أن يدع الناس ما هم عليه،
ويأخذوا بما هو عليه، لا يبالون ماذا يتركون، ولا يترددون
ماذا يأخذون

لكنهم نظروا أيضاً فوجدوا أن هذا معناه الدعوة إلى ترك
كثير مما أمر به الإسلام والأخذ بكثير مما نهى عنه. والإسلام
مهما ضعف في نفوس أهله فقد بقيت من روحه فيهم ومحبه
بينهم بقية لا تؤمن معها عواقب هذه الدعة على الدعاة من
ناحية، ولا يرجى معها من ناحية أخرى أن يستجيب أهله
إلى ما يخالف نظمه وأحكامه التي جرى عليها المسلمون منذ قام
صاحب الهجرة صلوات الله عليه فوضح للناس الدين حكماً وعملاً
باسم الله فاطر السموات والأرض وفاطر الناس. هنالك ذهب
دعاة الغرب مذاهب، وانقسموا ظرائق، فيما يدعون إليه،
وكيف يحملون الناس عليه

فهم من نظر فإذا القوة بيده، ولاه الناس إياها في ثقة به
وغفلة عن نيته، فرآها فرصة سانحة قد لا يؤتية الزمن مثلها لحمل
الناس على ما يريد، وتحقيق ما كان يتمناه من زمن بعيد، لحمل
قومه على غير الدين، بنفس القوة التي ائتمنوه عليها للدفاع عن
الدين. واشتط حتى كان يشق في سبيل القبة، ويحبس ويحصد
في سبيل السفور والاختلاط؛ ولم يقف حتى جرد الدولة عن
الدين، وحال في أمتة بين الإسلام وبين الحكم الذي هو أخص
خصائصه، وحتى استبدل بأحكامه أحكام أوروبا في الميدان الذي
لم تكن أوروبا لتطمع في غزوه: ميدان الأحوال الشخصية
من زواج وطلاق وتوريث. وشاءت رحمة الله ألا يطرد النجاس
لهذا الصنف من المقتولين ممن أراد حمل الناس على سنن الغرب
بالقوة رغم الدين، فكان من هؤلاء من أفلح قومه في الثورة
عليه غضبا لدينهم حتى أنزلوه عن عرشه وشرذوه عن بلده،
فكان فيما لقيه من الهزيمة والتشريد بعض العزاء للسلم الذي ينظر
إلى ما يجري في أقطار الإسلام الأخرى من بعيد، وشبه إنذار
لمن عساه أن تحدته نفسه بسلوك نفس الطريق. فوقف الخطر

الاسلامى وإضعافه ثم إطفائه لما أوجسوا منه خيفة، ورأوا في إحساس المسلم بفرق ما بين تعاليم الغرب وتعاليم الاسلام، عقبة العقبات في سبيل دعوتهم التي يثبونها والتي ما فتوا يوهمون الناس أن الخير كل الخير فيها. فتقت لهم حيلتهم ولطف كيدهم أن ينمروا هذا الشعور ويزيلوا هذا الاحساس فامخذ كل منهم سبيلا إلى نفس الغاية، او بالاحرى لم يدعوا سبيلا إلى تلك الغاية إلا سلكوها.

فهم من جعل يوم المسلم المحافظ المتحفز للمقاومة أن المقاومة غير مجدية. وان روح العصر لاشك غالب. فقيم المعاليه والامر مفروغ منه والنصر مكتوب لاهل اترى الجريد من الجيل الجديد، وهذه طريقة قد اثرت في كثيرين بل قد افلحت مع بعض من كان يظن انه اعقل وأبصر من أن يجوز عليه هذه الخدعة من اهل القلم من المسلمين. فكثرت حديثا بين فئة الشباب المنمدين في حر لهم الدينية الحديثه ضد الاختلاط، لا لان الاختلاط عنده صواب ولكن لأن وقت المقاومة قد فات. إذ الاختلاط قد بدأ منذ خمس عشرة سنة أو يزيد ا ولو كانت هذه الحجة على اساس من الحق لما أصابت الدعوة الاسلاميه شيئا من النجاح، لان عمرها كله لا يزيد على ربع قرن. ومع ذلك لم ييأس اهله ان يبدأوها برغم القرون الكثيرة التي رسخت فيها تلك النظم والتقاليد الاسلاميه التي قاموا لمحاربتها: وقد بداوها بالفعل واصابوا - لما اغتر المسلمون بقوتهم وضعفها - هذا النجاح الذي أوحى إلى ذلك الكاتب المسلم ما وحي من الكلام.

ومنهم من يحاول إدخال الطمأنينه على قلوب المسلمين المتملئين بايحاته إليهم ان لا ضير ولا خوف على الدين من ترك دعاه ما يسمونه الجديديشرون دعوتهم يمسوا وشمالا في ادها الاطعاف، وفي عقول النساء والرجال، لان الحق سيتضح والباطل سينهزم والاصحح سيبقى، وبتركهم يهيمون ان الباطل سينهزم من نفسه، والحق سيتصر على رغم فمود اهله، وأن الدين له رب يحميه: وإذ ذلك ليس هناك من داع إلى أن يعملوا هم على نصرته او يكلموا أنفسهم مشقة الجهاد في سبيله. ويصادف هذا الايجاء نفوساً تحركها للقيام كنحركا للفمود، فتجئح إلى الفمود والراحة مرة أخرى وتترك الميدان خلواً أو شبه خبير لأولئك الدعاة، وهي

من هذه الناحية وإن كان يخشى أنه لم يزل، إذ يخشى أن يكون هذا النوع من الخطر كما في بعض الافطار ينتظر الفرصة لبشب كالنار

على أن مقلدة الغرب والمتحمسين له ليسوا كلهم ممن يستطيع أو يرجو أن يستطيع أن يحمل الناس على خطوات الغرب بالقوة. والذين ليس يدهم العوة من دعاء الغرب لم يحملهم فقدان القوة على ترك السعى إلى غرضهم، بل هم دائبون ناصبون في سبيله لكنهم يكيفون وسائلهم بما يلائم الظروف. صحيح أن جميع وسائلهم يصح أن تلتخص في « بث الدعوة، لكن سبيل الدعوة معبد لهم مبصر، فإن جميع ما يراه الناس ويسمعونه في ملامهم ومتروضهم، وجميع ما يقرأونه للنسبية لا يخلو عما يتألفهم إلى ما يناق الدين ويثبت فيهم روح الغرب الما جن من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون: فالأعلى بالخانها ومعانيها المنها لكة. والراديو بما يذيعه من مهازل المنسارح وما جن الصالات، والسيما بما تعرضه من روايات صنعت في الغرب لتمثل فيها تمثل نواحي الشهوات فيه بما ينرى بها الناس، والمجلات والجرائد بما تنشر من قصص غير طاهر وصور غير نقيه منقول أكثرها عن مجلات الغرب وجرائده من غير نظر إلى الشرق وإلى البلاد الاسلاميه منه على الأحص - كل هذا وكثير غيره يعمل عمله في النفس المسليه الناشئة وغير الناشئة فتضعف من روح التدين فيها، وتمهد للغرب ودعائه سبيل الاستيلاء عليها

هذه العوامل في ذاتها خطر كبير، لكن لا يزال هناك في المسلمين شعور بأنها خطر، وأن من الواجب مقاومتها والعمل على تلافى آثارها. صحيح ان هذا الشعور أكثره كامن لا يبدو إلا حيناً بعد حين، وإذا ظهر قويا فترة عاد إلى مكمنه فترات، لكنه على أى حال شعور سليم، وهو على كل حال موجود منتشر، ووجوده هو معقد الامل والرجاء ان يصير يوماً ما قوة دافعة تدفع هذه الكتل البشرية الاسلاميه في طريق الاسلام لتحييا في بلادها حياة مسلمة، ولتقيم على الأرض مرة أخرى دولة لا يكون الحكم فيها إلا لله العلي الكبير

لذلك كان الخطر الأكبر والشر الأعظم هو ما اتجه إليه دعاة ما يصح أن يسمى باللاإسلامية، من تخدير هذا الشعور

بذلك تعرض نفسها للهلاك لأن رب الدين حين يحمي الدين يحميه طبق سنته التي خلت في الأولين باهلاك الفاعدين واستخلاف غيرهم من المجاهدين الذين (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) .

وأبلغ في السكيد من هذا إذا أرادوا أمراً وعارضهم حكم الدين أن يشككوا في ذلك الحكم ويزعموا للناس أن ليس في الدين ما يمنع مما يريدون ؛ فإذا قيل لهم إن الحكم ثابت عن طريق الإجماع أنكروا الإجماع أن يكون أصلاً من أصول الدين ، أو طالبوك بأن تثبت انعقاد الإجماع ؛ فإذا جئت لهم بالنص على اعتقاده تجده في بطون الكتب ، جوزوا أن يكون الكتاب قد أخطأ أو أن يكون صاحبه قد كذب ، أو احتجوا رأيهم برأى شاذ لبعض من كان لعله مثلهم في ماضي الاسلام من الخارجين عن جماعة المسلمين . ولو كان الحكم لا يثبت في الدين لرأى شاذ يراه واحد ولو كان من أهل العلم ما اعتقدت يعة أي بكر ، فإن خلاف سعد بن عبادة وهو من كبار الصحابة في أمر تلك البيعة معروف ، بل إذا كان الحكم في جماعة ما يمكن تعطيله بمثل حجتهم الواهية هذه ما أمكن تنفيذ حكم أو دستور في أمة من الأمم في هذا العصر أو في أي عصر ، ولكان قولهم هذا أبلغ ما يبرره حكم الفرد ، إذ يصير حكم الفرد في هذه الحالة هو البديل الوحيد من الفوضى

فإذا كان في الحكم نص من السنة الكريمة واحتججت بالحكم بذلك النص شككوا في السنة وقالوا إن الذي وضع على الرسول كثير ، فلعل هذا من المكذوب الموضوع . فإذا قلت إنه قطعاً ليس من الموضوع لأنه وارد في الصحاح ، قالوا إن الحديث الصحيح لا يمكن الجزم بأنه ثابت قطعاً عن الرسول ، فإن ما ثبت قطعاً عن الرسول هو المتواتر وهذا محدود معدود

ويحاولون أن يشككوك في الحديث جملة باستغلال أمانة علماء الحديث ومبالغتهم في التدقيق عند تمييز درجات الحديث ، إذ جعلوا الاحتمال العقلي البعيد للسب أو النسيان أو الخطأ فارقين الصحيح وبين ما لا يمكن أن يتطرق إليه إلا ذلك الاحتمال وهو المتواتر مع أن حديث الرسول قد محص بما لم يحص به حديث أو رأى أو فعل صدر عن بشر كائن من كان ، وأن هذا الحديث الصحيح قد صح

عن الرسول بالسند الممحص المنقود فاختر عن طريق تمحيص السند من بين مئات الآلاف من الأحاديث فلم يتجاوز عدده بضعة الآلاف ، منها كثير مشترك . والمبالغة في التدقيق فقط هي التي تميز عقلاً من بعيد ألا يكون مثل هذا الحديث مقطوعاً بصدوره عن الرسول برغم ذلك التحيص الدقيق . ولو كان مثل هذا الاحتمال مسقطاً للحديث لسقط التاريخ كله ولكان من العبث الاعتماد على تاريخ ، أو كان هذا الاحتمال يحيز إهمال الحديث فلا يعمل به لجاز إهمال كل ما هو في مرتبة دون مرتبة اليقين في العلم وفي الفلسفة ، مع أن العلم يتمسك بالنظرية الراجحة حتى يثبت بطلانها ؛ وأولئك المشككون أنفسهم يستندون في تدعيم آرائهم إلى آراء ونظريات هي من ناحية الثبوت في العلم أو الفلسفة دون مرتبة الحديث الصحيح بكثير من ناحية الثبوت في الدين . على أن الإجماع منعقد بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم بوجوب الأخذ في الأحكام بالحديث الصحيح . بل إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يأخذون في أحكامهم بالحديث يثبت عن الرسول عن طريق فرد ذكر أو أنثى ، وكانوا يرجعون عما عساهم يكونون ارتأوه أو حكموا به بما يخالف ذلك الحديث كما ترى توجيه ذلك مفصلاً في الرسالة التي كتبها الامام الشافعي مقدمة للأمام في الأصول ويلتحق بهذا النوع من كيد أولئك المشككة المعطلة ما يحاولونه من تعطيل القرآن وإبطال مفعوله عند المسلم بالتوسع في تأويله وصرف الآي عن وجهه وتخصيص عمومته وتخريجها على نحو يوافق ما يريدون ويعتقدون من آراء الغرب ونظرياته . ولقد لطفت حيلتهم في هذا حتى وقع في أحولتها بعض قصيري النظر ممن ينتسبون إلى الدين من المسلمين ؛ ووقع ولو واحداً من رجال الدين في أحولتهم تلك دليل على مبلغ الخطر الذي يحف بالاسلام اليوم في بلاده وصميم أهله . وإذا لم ينهض المسلمون لدفع هذا الشر ويصدقوا الله الجهاد فيه غير متوانين ولا متواكلين ولا مسوفين ، فيجزيهم بتراخيهم ذلة في الدنيا ، ويستخلف من بعدهم قوماً آخرين يؤيد بهم دينه الكريم (وينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

محمد احمد النمراري